بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أمّا بعد:

لم تكن العلوم الإسلامية حال نشأتها وتطورها علوم ترف وملح وتجمل، بل كانت علوم واقع وتطبيق وتنزيل، تعالج مشاكل الناس المختلفة وتقدم لها الحلول، وتساير الحركة العلمية في مختلف مراحلها، وترصد مشاكلها ونواقصها، فعلوم الشريعة حية بطبيعتها، وتعلُمها وتعليمها مقرون دائماً بالحاجة والباعث، ومسائلها مدفوعة أبداً بالضرورة العملية والوجوب الصناعي المدفوعان بالوقائع المختلفة والنوازل المستجداة.

وقد ارتبطت علوم الشريعة الإسلامية منذ نشأتها الأولى ارتباطاً عضوياً وثيقاً بالأصلين القرآن الكريم والسنة المطهرة، فهي خادمة لهما إمّا من جهة الثبوت أو من جهة الدلالة، وعلى هذا الأساس قسمت العلوم المتعلقة بالشريعة إلى قسمين رئيسيين؛ علوم مقاصد وعلوم وسائل، أو علوم غاية وعلوم آلة، وكل قسم من هذه العلوم يقوم بخدمة النص من قرآن أو سنة من جهة معينة ولغرض محدد، وعلى أساس هذا التقسيم تفرعت وتشعبت العلوم الإسلامية المختلفة منذ النشأة الأولى وإلى اليوم.

ولست هنا بصدد الحديث عن تاريخ التشريع الإسلامي وبيان أهم مراحله كما سيأتي معنا في المحاضرات القادمة، بل الغرض هنا هو تلمس خصائص العلوم الشرعية في سلم القيم الإسلامية، وخاصة تلك التي صاحبت نشأتها والتي ارتكز عليها بناء المذاهب الإسلامية المختلفة، فهناك قيم كانت باعثة ومنشئة للعلوم الإسلامية في الصدر الأول، ولا يمكن معرفة المنهج السليم لتلقي هذه العلوم دون الوقوف على هذه القيم المعرفية، والتي سأحاول رصدها واحدة تلو الأخرى في صورة قيم معرفية وأبعاد حسية ومعنوية في العلوم تختص بها العلوم الإسلامية، مرتبة حسب الأرقام أدناه مع شرح وتمثيل قدر الإمكان.

1- العلم فضيلة:

من أهم القيم المرتبطة بالعلم والتي أجمع عليها عقلاء البشر وأشاد بها علماء المسلمين هي كون العلم فضيلة في حد نفسه، فهو فضيلة قبل كل شيء ولا يحتاج صاحبه إلى شيء ليفضل به، فقيمة "الفضيلة" لا تنفك عن مسمى العلم بحال، وقد وجهت هذه القيمة مسار العلوم عند المسلمين منذ نشأتها في أحيان كثيرة، واستمدت سموها من معنى الفضيلة، وهي السمة العالية والغالية في سلم القيم الاجتماعية عند المسلمين، ولها تجلياتها الوهاجة

في العلوم الإسلامية تحملاً وأداءً، فالعلم فضيلة في حد ذاته من غير إضافة، لأنّه وصف كمال، وقد بين أبو حامد الغزالي هذا المعنى حين قال:"العلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة فإنه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء بل الكيس من الخيل خير من البليد فهي فضيلة على الإطلاق من غير إضافة."[1]

وعلى هذا المعنى تواترت وتضافرت قواطع الشواهد من القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ (المجادلة:11).

وقد جاء في القرآن الكريم تفضيل للكلب المعلم على غيره فما بالك ببني البشر، قال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ (المائدة:4).

ومن الشواهد أيضاً قول النبي ﷺ :"...وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا، ولا درهما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر."[2]

فالعلم شرف ورفعة وفضيلة، لذاته لا لغيره، وهو ميراث النبوة الباقي في الأمة، وهذا المعنى هو الذي جعل سلف الأمة من الصحابة ومن تبعهم بإحسان ينفقون في طلبه وتحصيله الأعمار ويصلون الليل بالنهار، ويتحملون في سبيله المشاق، فقيمة الفضل في العلم دافعة بحد ذاتها وباعثة على التعب والسهر والتحصيل ولو بدون مقابل دنيوي.

وهذه القيمة العالية كان لها عظيم الأثر –مع غيرها من القيم– حال نشأة العلوم الإسلامية جعلت علماء المسلمين يواظبون على حفظ العلوم وضبطها والتأليف فيها والاشتغال بها دون وجود مجاميع ولا مؤسسات رسمية أو غير رسمية تدفعهم لذلك، فالحركة العلمية التي شهدتها القرون الأولى كانت ذاتية الدفع، تتحرك من داخل المجتمع المسلم دون تدخل من السلطة الرسمية حينها.

2- العلم عبادة:

ومن المعاني أيضاً الباعثة والمصاحبة لنشأة العلوم الإسلامية معنى العبادة الموجود في تحصيل العلم وطلبه، ويمكن النظر إليه في هذا السياق على أنّه قيمة معنوية دافعة لظهور العلوم وتطورها، فالإسلام دين يحث على السعي لتحصيل العلوم بل ويجعله من الفروض والواجبات كالصلاة والصوم، ولهذا ذهب علماء المسلمين إلى أنّ طلب العلوم المختلفة هو من فروض الكفاية على الأمة وقد تتعين على بعض أفراد الأمة، ومعلوم في فن أصول الفقه أنّ الفروض الكفائية مقدمة على فروض الأعيان عند التعارض، لارتباطها الشديد بالمصلحة العامة.

---

[1] -أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، بيروت: دار المعرفة، ج1، ص12.

[2] - أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة العصرية، باب الحث على طلب العلم، ج3، رقم الحديث:3641، ص317.

ودليل هذا المعنى مأخوذ من قول الله تعالى﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة:122).

قال القرطبي:" هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم."[1]

ومن شواهد الأحاديث أيضاً على وجوب طلب العلم وإن اختلف العلماء في درجته بين مصحح ومضعف قوله ﷺ:" طلب العلم فريضة على كل مسلم."[2]

فمعنى الوجوب الشرعي التكليفي الموجود في العلم جعل العلماء الأوائل يجهدون في تحصيل العلوم وحفظها والاشتغال بها تعبداً، وطلباً لثواب أخروي لهذا نجد في التاريخ الإسلامي أنّ جميع فئات المجتمع كانت تهتم بالعلم وتحصيله رجلاً ونساءً، كباراً وصغاراً، أحراراً وموالي، والسبب وجود القيمة التعبدية فيه، فالعلم في القرون الأولى كان مسألة أمن قومي للمسلمين، ولهذا استنفر الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه الصحابة الكرام لكتابة المصحف بعد وقعة اليمامة، التي قتل فيها أكثر من سبعين صحابياً من حملة القرآن، وهكذا في الأزمنة اللاحقة للخلافة الراشدة حيث كانت السلطة تتدخل بصفة طارئة لتفعيل البعد التعبدي –الوجوب الكفائي- في الحث على العلوم كتدوين القرآن كما رأينا، وكتدوين السنة فيما بعد ذلك، وكترجمة العلوم من اللغات الأخرى في عصر المأمون العباسي، والأمثلة في هذا الباب كثيرة ومتنوعة، تدرج كلها في وظائف الخلافة حينها والتي نلخصها في حفظ الدين وسياسة الدنيا، والعلوم الإسلامية موجودة في الدنيا والدين، فلهذا وجب حفظها بالحث على طلبها.

3- العلم قيمة أخلاقية وبعد تربوي.

من القيم المصاحبة لنشأة العلوم القيمة الأخلاقية، ويمكن أن نسميها: البعد التربوي في طلب العلم والسعي إليه، وهو ما اصطلح عليه عند أهل التخصص بآداب الطلب، ويتلخص في العلاقة المعنوية بين الشيخ وتلميذه، والتي تهيئ التلميذ تربوياً – بيداغوجيا- للتلقي والتفعيل المعرفي، وهذا المنهج الأخلاقي الذي صاحب نشأة العلوم هو الذي جعل ثمارها تظهر مبكراً بحيث كان أدب الطالب مع شيخه شرط لازم لدخول مجالس العلم، وكانت مكانة المعلم في الذاكرة الجمعية مقرونة بمكانة النبوة، فالعلماء ورثة الأنبياء وطالب العلم يرضى عنه كل شي ويحترم مكانته، وقد جاء في الحديث:" إنّ الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع."[3]

فهذه المكانة الأخلاقية لطالب العلم تستوجب التحلي بأفضل صفات الأدب مع شيخه ومعلمه، وقد حفظت لنا كتب التراجم والسير قصصاً رائعةً للجيل الأول من طلاب العلم في حسن الأدب مع شيوخهم والأخذ

[1] - محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1964م، ج8، ص293.
[2] - محمد بن يزيد بن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ج1، رقم الحديث:224، ص81.
[3] - محمد بن حبان، صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2 1993م، باب ذكر البيان بأنّ المسح على الخفين...، ج4، رقم الحديث: 1319، ص147.

بنصائحهم والسعي للبقاء على طريقتهم ومذهبهم في العلم، ويمكن القول: إنّ البعد الأخلاقي والتربوي الذي ربط الطالب بشيخه وصاحب نشأة العلوم الإسلامية هو الذي أسس لظهور المذاهب والمدارس الإسلامية بعد ذلك، فهي وإن كان لها حضور علمي بالأساس إلا أنّ حقيقتها مبنية على الوفاء والالتزام والعلاقة الروحية المعنوية بين صاحب المذهب وتلاميذه من بعده، والتي يعبر عنها في بعض الأدبيات بالأبوة العلمية.

4- قيمة واقعية النص ومركزيته في العلوم الإسلامية:

لقد ارتبطت العلوم الإسلامية منذ نشأتها ارتباطاً وثيقاً بنصوص الوحي -القرآن الكريم و السنة النبوية- ، وقد فرغت هذه النصوص في قوالب زمنية بحسب الحوادث والحاجة فكانت نصوصها واقعية حية، وإن قدم القرآن على السنة في العناية زمن النبوة فهذا لأسباب موضوعية، إلاّ أنّهما حظيا بالاهتمام نفسه بعد ذلك، فليس بخاف على كل دارس لتاريخ التشريع الإسلامي أنّ اهتمام الصحابة الأول كان بالقرآن حفظاً واتقاناً وكتابتاً عملاً بإرشاد النبي ﷺ، ثم اهتموا بالسنة بعد وفاته ﷺ حفظاً ونقلاً وتمحيصاً والأدلة على هذه المسألة أوضح من أن تذكر.

لقد كانت الآيات القرآنية تتنزل بحسب الحوادث المختلفة، فارتبطت معها بهذا قيمتان في نشأة العلوم الشرعية وهما: مركزية النص وواقعيته، فأسست هذه العلوم على قواعد تدور في فلك النص -الكتاب والسنة- نشأة وتطوراً، فلا يمكن الحديث عن أي فن من فنون الشريعة الإسلامية دون ارتكاز على النصوص ودون حاجة واقعية لها، وعلى ضوء هذا الإشعاع سلكت العلوم طريقها، ولهذا كان أولها ظهوراً عند المسلمين ما كان منها الأكثر ارتباطاً بالنص، فكان ظهور طبقة القراء —العلماء الأوائل في الإسلام- قبل غيرهم، والذي كانوا يمتازون عن غيرهم بحفظ القرآن كما جاء في تسمية علماء الصحابة الأوائل، ثم ظهر منهم بعد ذلك من يفتق معاني القرآن ويثورها، كما عبر عبد الله بن مسعود حين قال:" من أراد خير الأولين والآخرين فليثور القرآن، فإن فيه خير الأولين والآخرين."[1]

ثم أخذت نصوص السنة في واقعية مصاحبة للتنزيل السنة مكانها إلى جنب القرآن الكريم توضح مشكله وتبين مجمله وتقيد مطلقه وتخصص عمومه، فكانت مدرسة الأثر التي تفهم النصوص بالنصوص في ضوء الوقائع المتجددة، وظهر معها علم تمحيص الأسانيد ونقدها الذي قعدت له مدرسة الحديث النبوي بعد ذلك.

فواقعية النص لها قيمتها الحضورية في نشأة العلوم الإسلامية فبنيت فنونها المختلفة على قواعده، وحتى عند قلة النصوص كان للعلماء بدائل أخرى للتغطية على غياب النص من حيث المنطوق أو من حيث المفهوم، فظهرت مذاهب للتعامل مع هذه الحال وتعويضه بقواعد أخرى مستمدة من النص في أصولها سميت بعد ذلك بمدرسة الرأي والتي سعت لتعويض غياب النص بقواعد مضبوطة، فكانت في مقابل مدرسة الأثر التي صاحبتها في الظهور زماناً

[1] - سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، ج9، رقم الحديث:8666، ص136.

وباعدتها مكاناً، وقد نتج عن احتكاك هذين المدرستين – الرأي والأثر– علم أصول الفقه الذي بين منزع كل مدرسة في تعاملها مع النصوص، ومسلكها في الاستدلال.

فلا يمكن تجاهل مركزية قيمة النص وواقعيته عند تعليم العلوم الإسلامية فلها لما لها من أثر عميق في نشأتها، فلم تكن علوم ترف أو سفسطة بحال، بل كنت علوم حاجة وواقع، وهذا ما يجعلنا نفهم سبب تقديم العلماء الأوائل للنقل –الأثر– على العقل –الرأي– والاستعانة بهذا الأخير عند الضرورة فقط، عملاً بالقاعدة المشهورة: لا اجتهاد مع النص.

ونفهم أيضاً سبب عناية المتقدمين بعلم الأسانيد والرجال، فهو الطريق الموصل إلى النص، ونفهم أيضاً سبب شدة ضبطهم العالي والعناية الفائقة التي حظيت بها النصوص من جهة الثبوت ومن جهة الدلالة، ونفهم كذلك ما نتج عن تلاقح النصوص بالعقول في علوم الشريعة من مسائل كثيرة أدت إلى ظهور المذاهب الفقهية والفرق الكلامية.

5– القيمة التكاملية:

تمتاز الشريعة الإسلامية بروابط عضوية بين نصوصها وبين أحكامها، وبعلائق قوية بين أصولها و بين فروعها، فكل دارس لعلوم الشريعة المختلفة يلمس ذلك التكامل والترابط والإحكام والإتقان الواصل بين علومها المختلفة، وهذا أمر لا ينكره إلا جاحد أو كليل نظر، فهذه القيمة التكاملية القوية الموجودة بين علوم الشريعة أصولاً وفروعاً هي التي جعلت الشريعة الإسلامية معصومةً في مجموعها، وفريدة بين الشرائع في جوهرها ومبادئها وروحها، فهي بطبعها عصية على الاختراق والتحريف والتبديل، ويخدم بعضها بعضاً ويصدقه، وهذا ما يكفل لها السمو والدوام ولو كره المبطلون.

فهذا الترابط والتكامل المعرفي الذي تتميز به العلوم الإسلامية ظهر مع نشأتها الأولى، فمنذ أن نزل القرآن الكريم وجاءت السنة المطهرة مصاحبة له تبين مجمله وتوضح مشكله وتظهر خفيه، والعلوم تنشأ بتراكمية معرفية وتكامل متداخل، فقد كان العلم في الصدر الأول مخصوصاً بالنقل لما سمع من الشارع وبتعليم ما جهل من الدّين على جهة البلاغ.[1]

ثم انتقل العلم من كونه رواية وبلاغ عن الشارع الحكيم إلى فهم في المروي واستنباط لمعانيه، فكان أكثر العلم نظر في دلالات النصوص، وكانت عندها نشأة الفقه، الذي توسع وتكاثر في مسائله وقضاياه حتى استقل عن الروية فكان عصر الفقهاء، الذين يُثَوِّرون النصوص من قرآن وسنة فيستخرجون منها العلم النافع.

[1] - مقدمة ابن خلدون، 39.

ثم حين اتسع الفقه وتباينت مدارسه ومذاهبه احتاجت كل مدرسة لبيان منهجها ومنزعها في الاستدلال والاستنباط فظهر علم أصول الفقه، بعد أن خرج من رحم الفقه ليكشف عن مناهج وطرائق بناء الأحكام الفقهية واستنباطها من النصوص، فكانت المدارس الأصولية المختلفة.

وحين بلغ علم أصول الفقه مبلغاً من النضج والاتساع في مباحثه ومسائله، وظهر التشابه والتوافق في بعض الفروع المبنية عليه، بدأ الحديث والبحث في التشابه بين المسائل، فظهر تقسيم المسائل الفقهية بحسب حاجة المكلف لها، وقد تجلى هذا الأمر بداية في ما كتبه الإمام أبو المعالي الجويني في كتابه البرهان والذي قسم فيه المصالح إلى ضروريات وحاجيات وتحسينيات، ثم جاء بعده من أسس لعلم القواعد الفقهية من خلال تقسيمه للمصلحة، فظهر علم الفروق والأشباه والنظائر مع العز بن عبد السلام والقرافي رحمهما الله، من خلال بحثهما عن العلل والمصالح والحكم في ما تآلف وتشابه من فروع الفقهاء، فكان هذا العلم مقدمة وتوطئة لعلم مقاصد الشريعة الذي سيتكشف بعد ذلك من تطور درس القواعد الفقهية وارتباطاته بأصول الفقه.[1]

ثم جاء بعد علم الفروق والأشباه والنظائر علم مقاصد الشريعة، فليس بخاف على كل مستكشف لعلم المقاصد أنّ قواعده الأولى وضعت على الأسس التي بناها العز بن عبد السلام والقرافي رحمهما الله والتي استعملا فيها حجارة متينة نحتها قبل ذلك إمام الحرمين أبو المعالي الجويني في كتابه البرهان ثم رصها وصفها بعده تلميذه الغزالي، فأبو المعالي هو صاحب الفضل والسبق في تقسيم مقاصد الشريعة إلى ضروريات وحاجيات وتحسينيات؛ والتي بلورها الغزالي بعده ثم قعدها العز والقرافي بعد ذلك، ثم جاء إمام المقاصد أبو إسحاق الشاطبي فرفع صرحها وشيد بناءها في كتابه الشهير الموافقات.[2]

من خلال هذا الترابط المتين المحكم بين النص والفقه والأصول والقواعد والمقاصد يتكشف المنهج المتسلسل والمتكامل الذي أخرج العلوم الإسلامية وبنيت عليه مذاهبها؛ فالنص بني عليه الفقه، والفقه خرجت منه الأصول، ثم خرج من الفقه والأصول مجتمعين علم الفروق والقواعد الفقهية ثم خرج من القواعد والأصول علم المقاصد، وهذا تمثيل مختصر لقيمة التكاملية التي تتآزر بها علوم الشريعة الإسلامية وتتضافر، والتي جعلتها كتلة واحدة محصنة تترابط فيما بينها عضوياً وتتكامل وظيفياً.

---

[1] – ينظر في هذا المعنى محاضرات محمد الفاضل بن عاشور بين أصول الفقه ومقاصد الشريعة، مركز النشر الجامعي، 1999، تونس.

[2] – ينظر أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الدار العالمية للتراث، ط2، 1992م.